مَنْهَجِيَّةُ تَدَبُّرِ القُرآنِ الكَرِيمِ

د. عبد الحسين الصافي
محافظة ميسان - العراق

فحوى البحث

بحث إرشادي يبين فيه السيد الباحث حقيقة تدبر القرآن الكريم عند تلاوته التي امرنا الله -سبحانه- بها. وهو الذي يعني : صرف القلب الى النظر في العواقب ويفصلها عن كلمة (التفكر) الذي هو: صرف القلب الى النظر في الدلائل. ثم يبين شروط التدبر ومنها: التحقيق في الفكرة والتريث في قبولها. وتهذيب النفس وتطهير القلب.

وفي الختام يورد الباحث تطبيقات عملية بالروايات الواردة عن النبي ﷺ والمعصومين عليهم السلام على أهمية وفائدة تدبر آيات القرآن الكريم.

● ان مما يصرف كثيراً من الناس عن التدبر والتفكر في القرآن الكريم والغوص في بحور آياته والنظر في معانيها هو اعتقادهم صعوبة فهمه وعدم الوقوف على معانيه السامية وهذه من الاخطاء الشائعة التي صدت عن التدبر في القرآن والانصراف عن غاياته التي من أجلها نزل وهذا ما أثار التساؤل لدى البعض في سبب عدم قدرت القرآن الكريم على علاج المسائل المعاصرة فهل استنفد أغراضة؟. فقد كان يقوم بدور كبير في صدر الاسلام إذ غيَّر امة بعد انغماس مطبق في الجهل والانحراف فلماذا لا يقوم بذلك الدور في عصرنا الراهن ونحن نعلم ان القران كتاب تربية وتعليم وهداية وبصائر لكل الناس في كل عصر ومكان، كما ورد في جملة من من الآيات ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ [سورة البقرة: ١٨٥] مع ذلك فقد يسر الله فهمه وتدبيره كما في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ وهذا ما يدفع اليه العقل والفطرة في حال اشكل معنى آية ان يبادر ويسارع للبحث عن معناها والمراد منه فليس من الصحيح ان تغلق العقول عن التدبر فيه بحجة عدم معرفة تفسيره والاكتفاء بقراءة الفاظه فلا ريب ان هذا مدخل من مداخل الشيطان على العبد ليصرفه عن الاهتداء به فالقران لم يتغير ولم يستنفذ اغراضه ولا يزال الكتاب الإلهي يصدع في معارفه لانقاذ البشرية وهو الوحيد الذي تبنى عليه الآمال في بناء المجتمعات وتقويم الحضارات كما كان الحال في صدر الاسلام من تعامل المسلمين مع القرآن وكيفية تلقيهم مفاهيمه مما ادى الى التغيير الجذري في اوساطهم ونفوسهم. فكان المسلمون في صدر الاسلام يفهمون القرآن كتاب حياة ومنهجا للتطبيق والتنفيذ فهو مرجعهم ودستورهم في كل المجالات السياسية والقانونية وغيرهما بخلاف ما في عصورنا المتأخرة من ناحية التعامل مع القرآن بشكل ظاهري قشري وشتان بين الامرين فقد كان الاولياء يتعاملون به بحسب ما امر به المولى عز وجل واكد عليه النبي ﷺ وأهل البيت عليهم السلام فنلاحظ الامام

الصادق عليه السلام حينما سألوه عن حالة لحقته في الصلاة عندما قرأ قوله تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حتّى خرّ مغشيّا عليه، فلمّا أفاق قيل له في ذلك فقال: ما زلت اردّد هذه الآية على قلبي حتّى سمعتها من المتكلّم بها فلم يثبت جسمي لمعاينة قدرته)[1].

بل إن التدبر للحظاتٍ في القرآن الكريم كان منعطفا وتغييراً كبيراً في حياة الكثيرين، حتى مع المجرمين والمتمردين كما حصل للفضيل بن عياض الذي كان في بداية حياته مجرماً خطيراً، وكان ذكر اسمه كافياً لإثارة الرعب في القلوب. لقد كان يقطع الطريق على القوافل، ويسلب المسافرين ما يملكون.

وذات يوم وقعت نظراته على فتاة جميلة، فصمم في نفسه أمراً، وفي نفس تلك الليلة كان يتسلق جدار ذلك البيت الذي تسكن فيه الفتاة، وهو ينوي الاعتداء عليها واغتصابها، وفي هذه الأثناء، تناهى إلى مسامعه صوت يتلو هذه الآية الكريمة: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾، فأخذ يفكر في الآية بضع ثوان، وأخذ يردد مع نفسه: "يا رب، بلى قد آن. ثم هبط من الجدار، وتولى بوجهه شطر المسجد الحرام، فاعتكف فيه إلى أن مات[2].

فإن تدبر هذا الرجل في آية واحدة حوّله من مجرم متمرس بالجريمة إلى معتكف في محراب العبادة، فكيف إذا تدبر الإنسان في كل القرآن؟. فإن القرآن كتاب حياة، يقول الله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [سورة الانفال: ٢٤]، ولذلك فإنه يجب الانتفاع من القرآن في كل مجالات الحياة، وليس في مجال أو مجالين.

التدبر في اللغة والاصطلاح

ذكر اللغويون جملة من التعريفات مع وجود بعض الفوارق بحسب تصاريف اللفظ وملخصه: هو النظر والتحقيق في عواقب الامور ونتائج الشي. وأصله الدبر والتدابر: التقاطع، لان كل واحد يولي الآخر دبره، بعداوته له. ودبر القوم

(١) الوافي، الفيض الكاشاني، ج٨ ص٦٩٩.

(٢) تاريخ مدينة دمشق. ابن عساكر، ج٤٨ ص٣٨٠.

يدبرون دبارا: إذا هلكوا، لأنهم يذهبون في جهة الادبار عن الغرض. وادبر القوم: إذا ولى أمرهم وتنفيذ أمره تعالى عن الرشد. والدبر: النحل. والدبر: المال الكثير. والتدبير: اصلاح الامر لعاقبة وفي الحديث (لا تدابروا) أي لا تكونوا أعداء. وايضاً قوله ﷺ «إياكم والتدابر» وهو التقاطع والمصارمة والهجران، مأخوذ من أن يولي الرجل صاحبه دبره بعداوته ويعرض عنه بوجهه[٣].

وقال بعضهم: الدّبر بالتحريك: الجرح الّذي يكون في ظهر البعير، وقيل دبار جمع دبر، وهو آخر أوقات الشيء، كالإدبار في قوله تعالى: ﴿ وَأَدْبَرَ ٱلسُّجُودِ ﴾.

وايضا قولهم: فَقُطِعَ دابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا، أي أهلك آخر من بقي منهم، والدّابر: الآخر، قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾، من التدبّر وهو النظر في إدبار الأمور وتأمّلها، ومنه يقال لآخر الأمر: دبر، والتدبير في الأمر: أن تنظر إلى ما تؤول إليه عاقبته، وتدبّر الأمر: التفكّر فيه.

(٣) لسان العرب، ابن منظور، مادة (دبر). وتفسير التبيان، الطوسي، ج٣ ص٢٧٠.

وفي الاصطلاح العام للتدبر هو التفكر الشامل الواصل إلى أواخر دلالات الكلم ومراميه البعيدة، ومعنى تدبر القرآن: هو التفكر والتأمل لآيات القرآن من أجل فهمه وإدارك معانيه وحكمه والمراد منه.

فتحصل أنّ الأسلوب الوحيد الذي يعطي المعنى (التدبّر) هو ملاحقة المفردة لاكتشاف قانونها، ومن المجموع يتحصّل المعنى الكلّي للتركيب في الآية. والمعنى الآخر للتدبّر هو اتّباع القرآن. فالباحث يجب أن يكون وراء القرآن لا أمامه. وهذا يعني أنّ القرآن بيِّنٌ بنفسه مُحكمٌ بذاته قادرٌ على كشف نفسه بنفسه.

الفرق بين التدبر والتفكر

إنّ التدبر صرفُ القلب الى النظر في العواقب، والتفكر صرف القلب بالنظر في الدلائل، قال العلامة الطباطبائي في الميزان:

والتدبر هو أخْذ الشيء بعد الشيء، وهو في مورد الآية: التأمل في الآية عقيب الآية، أو التأمل بعد التأمل في الآية الواحدة[٤].

ولهذا فالتدبر الذي هو عبارة عن النظر

(٤) ج٥ ص١٩.

في عواقب الأمور وهو قريب من التفكر إلا أن التفكر: تصرف القلب بالنظر في الدليل، والتدبر تعرفه بالنظر في العواقب، فقد قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [سورة محمد: ٢٤].

القرآن كتاب فكر وتدبر وعمل

تؤكد آيات القرآن المختلفة على حقيقة أنَّ هذا الكتاب السماوي العظيم ليس للتلاوة وحسب، بل إن الهدف النهائي منه هو الذكر والتفكر، والتدبر في عواقب الأمور، والإنذار، وإخراج البشر من الظلمات، والشقاء الى ساحل الخير والهداية. فعندما نقرأ قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ وايضا قوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ و قوله: ﴿ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ ﴾ وقوله: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ وغيرها من الآيات التي تؤكد الهدف السامي الذي يروم إليه القرآن الكريم في بناء المجتمع على الشكل المطلوب الذي ينسجم مع الفطرة والنظم الاخلاقية التربوية في كل المجالات، يجب أن يأخذ القرآن الكريم مكانه الريادي من حياة المسلمين، ويكون في صميمها لا على هامشها، وعليهم أن يجعلوه قدوتهم وأسوتهم، وأن ينفذوا كل أوامره، وأن يجعلوا خطوط حياتهم وطبيعتها منسجمة معه.

فينبغي أن لا يتعامل مع القرآن الكريم على أنه مجموعة أوراد وأذكار، يتلى تلاوة مجردة، أو يهتمون به أشد الاهتمام بالتجويد ومخارج الحروف وحسن الصوت وما إليه، ولو أنّ هذا جيد ومطلوب لكن ليس هو الهدف منه، بل ربما يكون مقدمة ووسيله لتحقيق الهدف منه. ولذا نلاحظ أكثر شقاء المسلمين وتعاستهم يكمن في أنهم أخرجوا القرآن عن كونه دستورا جامعا لحياة البشر، واكتفوا بترديد ألفاظه، وقنعوا بذلك. والآيات المتقدمة جلية وواضحة في بيان الهدف المنشود منه والتأكيد عليه ومدى اهمية ذلك فكيف يكون سبباً لإخراج الناس من الظلمات الى النور من دون تدبر آياته والاغتنام من كنوزه. كما أشار اليه

الامام أمير المؤمنين عليه السلام في وصفه للمتقين، الى أن يقول: «أَمَّا اللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ تَالُونَ لِأَجْزَاءِ الْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهُ تَرْتِيلًا يُحَزِّنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ وَ يَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ وَ تَهِيجُ أَحْزَانُهُمْ بُكَاءً عَلَى ذُنُوبِهِمْ وَ وَجَعِ كُلُومِهِمْ وَ جِرَاحِهِمْ فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً وَ تَطَلَّعَتْ أَنْفُسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً وَ ظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ وَ إِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وَ ظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وَ شَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ وَ مُفْتَرِشُونَ جِبَاهَهُمْ وَ أَكُفَّهُمْ وَ أَطْرَافَ الْأَقْدَامِ يَطْلُبُونَ إِلَى اللَّهِ الْعَظِيمِ فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ... الخ»[٥].

شروط التدبر في القرآن

لحصول التكامل والانسجام في معنى التدبر والوصول الى الثمرات المفيدة والغنية لا بد من توافر مجموعة من الشروط والمقدمات لكل من أراد التدبر والتأمل في آي الذكر الحكيم ومن جملتها ما يلي:

اولاً: الملاحظة العلمية الدقيقة في آيات القرآن وألفاظه.

في الوهلة الأولى يلزم طرح عدة تساؤلات واستفسارات واثارات حول الآية أو الآيات بل حول مختلف الظواهر القرآنية وذلك من قبيل التساؤل حول تحويل التعبير من غائب الى المخاطب، وسبب مجيء الحصر هنا، أو حكمة التكرار في بعض الكلمات أو الآيات وهكذا.

وهذا النحو من الاسلوب قد أعطى صبغة وحظاً كبيرا للتقدم العلمي المعاصر، فكان أغلب البشر طيلة الأزمان المنصرمة يشاهدون ويمرون بظواهر طبيعية من دون التدبر في كشف قوانينها الكامنة وراءها بخلاف العصور المتأخرة فقد بدأوا بالتحقيق في كل شيء من هذا الكون حتى توصلوا الى اكتشافات هائلة، وهكذا ينبغي انّ نتعامل مع القرآن الكريم كما دعا الى ذلك المولى عز وجل في التدبر والتأمل فهو مائدة تؤتي أكلها كل حين، وكل آية عبارة عن كنز واسع العطاء تحتاج الى تدبر ودقة علمية وامعان...

ثانياً: طرح الأفكار والرؤى

بعد تحصيل الملاحظة العلمية في طرح مجموعة من التساؤلات حول الآيات

(٥) تحف العقول، ص١٥٩.

القرآنية والظواهر المختلفة للقرآن الكريم يلزم البدء في التفكر المعمق بتأنٍ وتروٍ للوصول الى الاجابات والحلول المطلوبة، ولا ينبغي الاحباط واليأس في حال عدم التوصل الى المنشود فان القطرة لا تستطيع ان تثقب الصخور بل عندما تتكرر مرات عديدة مع الدقة والتركيز يحصل المطلوب من ثقب الصخرة الصلد، وما اشبهها بعقل الانسان وفكره فانه يخترق كل الظواهر ويصل الى البواطن والخفايا الكامنة وراءها بشرط التكرار والدقة والتركيز على نقطة معينة، فقد ذكروا ان توماس اديسون اجرى عملية اختبار على اكتشاف المصباح الكهربائي (٩٩ مرة) ولم يحض بالنجاح بل كلها باءت بالفشل مع انه لم يعبر عن ذلك بالفشل بل كان يقول لم تنجح التجربة الى ان حظي بنجاحها. فلا ينبغي ان تحصل عند المتدبر والمتأمل –في حال عدم الوصول الى الجواب– انتكاسة واحباط ويأس ومن ثم يعرض عن ذلك بل عليه ان يتحلى بالصبر والمثابرة والصمود للحصول على ما يروم.

ثالثاً: التحقيق في الفكرة والتريث في قبولها

بعد البحث والتحقيق والامعان ربما يجد أفكارا لها بريق خاص في بدايتها وقد يقبلها من دون تأن وتحقيق في مدى صحتها أو سقمها. وهذه الافكار (التي تأتي من خلال التدبر والتحقيق في آيات القرآن) تحصل من طريقين: اما من خلال الأفكار الجاهزة المنبثقة من الغير ضمن قوالب ظريفة ولطيفة. او من خلال الافكار الشخصية المنبثقة من ذاته التي طالما حاباها واختار لها. فعليه أن لا يهتم بمظهرها الخارجي وانما يهتم بمضمونها ومحتواها ومدى صحتها. وان لا يتسرع في قبول ما ابدعه فكره وعقله وتفكيره، بل يلزمه التحقيق والامعان في مدى سلامة وصحة ما توصل إليه، وملاحظة كل الجوانب المختلفة للمسألة فان كان حقا بعد كل الملاحظات والامعان والتحقيق أخذ به وإلا طرحه جانبا.

رابعاً: تحكيم القرآن الكريم والمصادر الأخرى

في حال التمييز بين صحة هذه الفكرة أو سقمها لابد أن يحكّم في ذلك القرآن الكريم بملاحظة سياق الآيات الكريمة

والظواهر العامة والنظر في القرائن الثابتة سواء كانت لفظية أم عقلية أم غيرهما من الوسائط، فيكون المرجع في تصحيح الافكار (التي توصل لها من خلال التدبر) بالدرجة الأولى القرآن الكريم فهو الحاكم وله القول الفصل ويكون الامام المتبع والمقتدى ليس العكس. إضافة الى ذلك الرجوع الى المصادر الأصلية من كتب اللغة والتفسير وروايات المعصومين عليهم السلام.

خامساً: الثقة بالنفس

لا ينبغي للمتدبر في آي الذكر الحكيم ان يستصغر ذاته ويحقر أفكاره في حال تدبره وتأمله، ولا يسمح لنفسه بالذوبان والاضمحلال في افكار الاخرين وآرائهم. نعم ان آراء السابقين وغيرهم قد تكون بمثابة الضوء الذي يستنير به في الطريق، وليس سبباً لقفل أبواب التفكير امام الافراد ومن ثم الاصابة بالتحجر والجمود، فآراء المفسرين وغيرهم قد تكون بمثابة الوسائل المؤدية للوصول الى ما يروم من الأجوبة السليمة فاما أن يكون مؤيدا أو ممهدا ومقرباً إليه.

سادساً: الإبداع في دائرة الدين

التطور في كل المجالات الثقافية والحضارية والاقتصادية وما إليه إنما حصل من خلال أصحاب العقول المبدعة فعلى المتدبر في المجال القرآني أن يربي نفسه وذهنه على الإبداع ويحاول إيجاد الرؤى الجديدة والأفكار المبتكرة. بشرط أن يكون ضمن حدود الدين وضوابط الشرع حتى لا يتصف بالبدع المنهي عنها في الشرع الحنيف.

سابعا: تهذيب النفس وتطهير القلب

من الشروط اللازمة أيضاً في تدبر القرآن الكريم والاستفادة من كنوزه تزكية وتهذيب النفس وتطهير القلب؛ لأنّ القلوب إذا كانت مقفلة بأقفال الهوى والشهوات والكبرياء والغرور وغير ذلك لم يلجها نور الحق، وقد أشارت جملة من الآيات إلى هذا المعنى. منها قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾. وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير جملة: أم على قلوب أقفالها: «يا سُلَيْمَانُ إِنَّ لَكَ قَلْباً وَ مَسَامِعَ وَ إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَهْدِيَ

عَبْداً فَتَحَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ وَ إِذَا أَرَادَ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ خَتَمَ مَسَامِعَ قَلْبِهِ فَلَا يَصْلُحُ أَبَداً وَ هُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَ جَلَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها»[٦].

وأيضا ورد في الرواية: «ان العلم نور يقذفه اللّه تعالى في قلب من يشاء»[٧].

لذا نجد أنّ الله سبحانه وتعالى ذكر في كتابه الكريم علامات وصفات تصف حقيقة تدبر القرآن وتوضحه بجلاء منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[سورة المائدة: ٨٣]. وقوله تعالى﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾[سورة الانفال: ٢]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ سورة التوبة: ١٢٤]. وقوله تعالى: ﴿قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا﴾[سورة الاسراء: ١٠٧-١٠٩]. وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا﴾[سورة الفرقان: ٧٣]. وقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾[سورة الزمر: ٢٣]. وغيرها من الآيات الواردة في هذا المجال فقد بينت حين سماع القرآن او قراءته يجتمع لذلك القلب والفكر حين القراءة، وتأخذه الخشية من الله والزيادة في الخشوع، والإيمان، والفرح والاستبشار، القشعريرة وما الى غير ذلك. فمن وجد واحدة من هذه الصفات أو أكثر فقد وصل إلى حالة التدبر والتفكر، أما من لم يحصل أيا من هذه العلامات فهو محروم من تدبر القرآن ولم يصل بعد إلى شيء من كنوزه وذخائره.

(٦) المحاسن: ج١، ص: ٢٠٠.
(٧) النور الساطع في الفقه النافع، الشيخ علي كاشف الغطاء، ج١ ص١٥٩.

اهتمام الشريعة بالتدبر:-

طالما اوصى الشرع الحنيف وحث الأمة على التدبر والتفكر ويعدّه الأصل في العبادة ويفضله على غيره كما في الحديث: "تفكر ساعة خير من عبادة سنة"[٨] وذلك؛ لأنّ من خلاله ينطلق العبد نحو سلم الكمال ودرجات الجمال ويحظى بسعادة الدارين، والقرآن هو أول من أوصى بالتدبر والتفكر بآيات عديدة منها قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾. ومنها: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾. وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، وهذا يعبر عن مستوى أهمية التدبر لاسيما في آي الذكر الحكيم التي تعد منهجا رصينا ودستورا حكيما للبشرية بكل أطيافها.

وقد ورد أنّ المقصود من (التلاوة) في قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ التدبر والتأمل، كما روى الكليني بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام أنّه سُئل عن قول الله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ فقال: «قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام بَيِّنْه تِبْيَاناً ولَا تَهُذَّه هَذَّ الشِّعْرِ ولَا تَنْثُرْه نَثْرَ الرَّمْلِ ولَكِنْ أَفْزِعُوا قُلُوبَكُمُ الْقَاسِيَةَ ولَا يَكُنْ هَمُّ أَحَدِكُمْ آخِرَ السُّورَةِ»[٩]. ولا تقرع أو تفزع القلوب بالقراءة السطحية والقرآءة اللفظية وانما يحصل ذلك مع التأمل والتدبر والامعان. وأيضا ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قال: »ينبغي للعبد إذا صلى أن يرتل قراءته، وإذا مر بآية فيها ذكر الجنة أو النار سأل الله الجنة وتعوذ بالله من النار، وإذا مر بـ (يا أيها الناس ويا أيها الذين آمنوا) قال: لبيك ربنا»[١٠]. القراءة ليست إلا وسيلة للمعاني ومن ثم يترتب الأثر المنشود والهدف المطلوب كما كشف أمير المؤمنين عليه السلام عن ذلك بقوله: «أَلَا لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَيْسَ فِيهِ تَفَهُّمٌ أَلَا لَا خَيْرَ فِي قِرَاءَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَدَبُّرٌ أَلَا لَا خَيْرَ فِي عِبَادَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَفَكُّرٌ»[١١].

(٨) تفسير العياشي، ابن مسعود العياشي، ج٢ ص٢٠٨.

(٩) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢ ص٦١٤.

(١٠) المعتبر، المحقق الحلي، ج٢ ص١٨١.

(١١) الكافي، الشيخ الكليني، ج١ ص٣٦.

نستخلص مما تقدم من الآيات الكريمة والأحاديث أنّ تدبر القرآن مقصد أساس من مقاصد نزول القرآن الكريم، فهو السبيل لفهم أحكامه، وهو الطريق لبيان غاياته ومقاصده؛ فلا يُفهم القرآن حق الفهم، ولا تُعرف مقاصده وغاياته حق المعرفة، إلا بالوقوف عند آياته ولا تجدي قراءة القرآن، والاستماع إلى تلاوته كحروف بلا معنى، وكلمات بلا مفهوم، فلا يؤدي ذلك الى العمل والوصول الى المطلوب؛ لأنّ الفهم هو المقدمة الطبيعية للعمل بالشيء، كما كان المسلمون الأولون لا يقرؤون آية حتى يتفكروا في أبعادها المختلفة، وحتى يعوها بشكل كامل.

فإنّ على من يقرأ القرآن أن يستثير عقله به، ويفزع قلبه، ويفقه ما وراءه من أبعاد كامنة، وإلا فسينطبق عليه حديث الرسول الأعظمﷺ حين قال عن بعض الآيات: «ويل لمن لاكها بين لحييه ثم لم يتدبرها»[١٢]. وفي حديث آخر عنهﷺ: «ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأمل ما فيها»[١٣].

وقد بيّن الإمام الصادقعليه السلام في حديث طويل عن المغزى الأساسي لقراءة القرآن الكريم، وحذر من بعض العوائق التي تحولنا جانباً عن الغور في معانيه والاستفادة من كنوزه، فقالعليه السلام: «من قرأ القرآن ولم يخضع لله، ولم يرق قلبه، ولا يكتسي حزنا ووجلا في سره، فقد استهان بعظم شأن الله تعالى، وخسر خسرانا مبينا، فقارئ القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء: قلب خاشع، وبدن فارغ، وموضع خال، فإذا خشع لله قلبه، فر منه الشيطان الرجيم، قال الله تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ وإذا تفرغ نفسه من الأسباب تجرد قلبه للقراءة، فلا يعرضه عارض، فيحرم بركة نور القرآن وفوائده، وإذا اتخذ مجلسا خاليا، واعتزل الخلق جميعاً، بعد أن أتى بالخصلتين الاوليين، استأنس روحه وسره، ووجد حلاوة مخاطبة الله عز وجل عباده الصالحين، وعلم

(١٢) المحجة البضاء في تهذيب الأحياء، الفيض الكاشاني، ج٢ ص٤٠٢.

(١٣) تفسير جوامع الجامع، الشيخ الطبرسي، ج١ ص٣٦٢.

لطفه بهم، ومقام اختصاصه لهم، بفنون كراماته، وبدائع إشاراته، فإذا شرب كأسا من هذا الشرب، حينئذ لا يختار على ذلك الحال حالا، ولا على ذلك الوقت وقتا، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة، لان فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة، فانظر كيف تقرأ كتاب ربك، ومنشور ولايتك وكيف تجيب أوامره ونواهيه؟. وكيف تمتثل حدوده؟. فإنه كتاب عزيز ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ فرتله ترتيلا، فقف عند وعده ووعيده، وتفكر في أمثاله ومواعظه، واحذر ان تقع من اقامتك حروفه في إضاعة حدوده"[١٤].

فوائد تدبر القرآن

من أهم العناصر المقومة للحياة في شتى المجالات العلمية والعملية المادية والمعنوية عنصر التفكر والتدبر، من خلاله يرسم خارطة الطريق ويقرب الى الصواب والاتقان ويرتقي في سلم الكمال وهذا ما نلاحظه عند علماء التجربة والفن وغيرهم من خلال تفكراتهم وتأملاتهم في اختصاصاتهم التي أهلتهم للتطور والتقدم في المجال التكنولوجي وغيره، وهكذا الحال في علماء الدين والفلسفة والاخلاق فهم أولى في التدبر والتفكر في الامور الغائبة عن حواسهم من خلال الحاضرة فالدين وبما فيه القرآن الكريم الذي يعد الدستور للبشرية يدعو الى التدبر بآياته والتفكر بأحكامه وهناك جملة من الفوائد والآثار الايجابية المرجوة في حال التدبر بآي الذكر الحكيم منها ما يلي:

اولا: التأثر العملي

يمكن أن نقول إنّ التدبر في القرآن الكريم وآياته، هو الطريق الوحيد للاستفادة منه ومن آياته، ومن ثم التأثر بها. حيث أنّ القراءة الخالية من التفكر والتدبر في معان الآيات ومضامينها ليس إلا كلمات يرددها اللسان من دون أن تؤثر في واقعه وتوصله الى غايته المنشودة.

بخلاف التلاوة الواعية التي تحتوي على التدبر والتأمل فهي تتجاوز اللسان، وتنفذ إلى القلب، فتهزّه، وتؤثر في اتجاهه وتوصله إلى غاياته المطلوبة.

(١٤) مستدرك الوسائل، ميرزا حسين النوري الطبرسي، ج٤ ص٢٤١.

لذلك نجد أولياء الله العارفين يتلون القرآن بوعي وتدبر، فكانت جلودهم تقشعر، وقلوبهم ترتجف حين يقرأون آية أو يسمعونها، بل ربما كانوا يُصعقون لعظمة وقع الآية في نفوسهم. كما ذكر في مجمع البيان أن النبي ﷺ سمع قارئا يقرأ هذه الآية: ﴿ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ أي عقابا موجعا مؤلما. فصعق[١٥].

كما وقد حصل مع الإمام الصادق عليه السلام حينما قرأ آية في صلاته وهي قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. وردّدها عدة مرات فصعق صعقة، ووقع مغشياً عليه، ولما أفاق سُئل عن ذلك، فقال: «لقد كررتها حتى كأني سمعتها من المتكلم بها، فلم يثبت لها جسمي، لمعاينة قدرته»[١٦].

ثانيا: إخراج العصاة من الضلال والانحراف

فإن التدبر ولو للحظات في آي القرآن الكريم، قد يكون منعطفاً تغييرياً كبيراً، في حياة الكثير من العصاة والمجرمين. كما حصل مع (الفضيل بن عياض).

ثالثاً: طريق لفهم مضامين القرآن

إنّ التدبر في القرآن هو الطريق الوحيد لفهم معاني ومضامين وأفكار ومبادئ القرآن الكريم كما أنزلها الله سبحانه. ومن هنا، يقول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[سورة الاسراء: ٩].

وأطلق القرآن على نفسه اسم (الفرقان) ذلك لأنه يفصل ويفرّق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، فكل ذلك يدعو الى التدبر فيها.

رابعاً: شفاء وعلاج للنفوس

هناك جملة من المشاكل التي تواجه الإنسان في حياته الفردية الأسرية أو الاجتماعية فقراءة القرآن مع التدبر والتفكر تساعد على إزالة كل المشاكل، وعلاج كل الصدمات والقيام بتطهير ما علق في نفس الإنسان من سلبيات.

ومن هنا يقول الله سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [سورة يونس: ٥٧]. وقوله أيضا: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[سورة الاسراء:

(١٥) بحار الانوار، الشيخ المجلسي، ج٨ ص٢٧١.

(١٦) الدرر النجفية من الملتقطات اليوسفية، المحقق البحراني، ج٢ ص٢٣٣.

٨٢]. وجاء عن رسول الله ﷺ قال: إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: يا رسول الله فما جلاؤها؟. قال: تلاوة القرآن[١٧]. والتلاوة من دون تدبر وتأمل لا تكون سبباً لجلاء القلوب كما تقدم.

خامساً: طريق للعمل

فإن التدبر في القرآن هو الطريق الى العمل بما جاء فيه، وذلك لأن العمل بالقرآن يتوقف على فهمه، وفهم القرآن لا يمكن إلا بتدبر آياته.

ومن هنا، فإن الذين لا يتدبرون القرآن سوف يفوتهم تطبيق الكثير من مبادئ الدين في حياتهم العملية، وهم لا يشعرون.

أهداف التدبر في القرآن

في البداية يؤكد القرآن أن الهدف من نزوله هو أن يتدبر الناس آياته، فيقول: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾، ذلك؛ لأن من الطبيعي أن يعتبر التدبر الهدف المبدئي لنزول القرآن. وفي سبيل الوصول إلى هذه الغاية جعل الله القرآن كتاباً ميسراً للفهم، وفي هذا ا لمجال يقول المولى في قوله﴿ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴾ ولأهمية هذا الأمر يكرر القرآن هذه الآية الكريمة في سورة القمر أربع مرات. ويقول أيضاً: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴾، ويقول سبحانه: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴾.

والقرآن ليس فقط يدعو الناس إلى التدبر في آياته، وإنما يطلب منهم أن يمارسوا التدبر العميق أيضاً، كما نفهم من قوله سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾.

كما أنّ الآيات تدعو المنافقين والمتمردين إلى التدبر في القرآن حتى يطمئنوا بأنه من عند الله، ويزول بذلك نفاقهم وترددهم مع تدبر عميق، وتأمل كبير ومنه يكتشفوا عدم الاختلاف وعدم التناقض بين الآيات القرآنية المختلفة. فهو أيضا يدعو المسلمين والمؤمنين كغيرهم حتى يزدادوا إيمانا واطمئنانا ويقينا ويستلهموا من معارفه الحقة.

وفي رواية عَنِ الزُّهْرِيِّ قَالَ سَمِعْتُ

(١٧) الدعوات، القطب الراوند، ص٢٣٧.

عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنعليه السلام يَقُولُ «آيَاتُ الْقُرْآنِ خَزَائِنُ فَكُلَّمَا فَتَحْتَ خِزَانَةً يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تَنْظُرَ مَا فِيهَا»[١٨]. ومن أجل ذلك ورد الأمر بترتيل القرآن لأنه أقرب إلى التركيز والتأمل، كما تقدم.

وأيضاً تعطينا الروايات نماذج عملية في هذا المجال، فقد جاء في الكافي عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي حَمْزَةَ قَالَ دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِ اللهعليه السلام فَقَالَ لَه أَبُو بَصِيرٍ جُعِلْتُ فِدَاكَ أَقْرَأُ الْقُرْآنَ فِي شَهْرٍ رَمَضَانَ فِي لَيْلَةٍ فَقَالَ لَا قَالَ فَفِي لَيْلَتَيْنِ قَالَ لَا قَالَ فَفِي ثَلَاثٍ قَالَ هَا وأَشَارَ بِيَدِه ثُمَّ قَالَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ إِنَّ لِرَمَضَانَ حَقّاً وحُرْمَةً لَا يُشْبِهُه شَيْءٌ مِنَ الشُّهُورِ وكَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ص يَقْرَأُ أَحَدُهُمُ الْقُرْآنَ فِي شَهْرٍ أَوْ أَقَلَّ إِنَّ الْقُرْآنَ لَا يُقْرَأُ هَذْرَمَةً (السرعة في القراءة) ولَكِنْ يُرَتَّلُ تَرْتِيلاً فَإِذَا مَرَرْتَ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ فَقِفْ عِنْدَهَا وسَلِ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ الْجَنَّةَ وإِذَا مَرَرْتَ بِآيَةٍ فِيهَا ذِكْرُ النَّارِ فَقِفْ عِنْدَهَا وتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنَ النَّارِ[١٩].

وفي حديث طويل عن الإمام الرضاعليه السلام»... وَ كَانَ يَخْتِمُهُ فِي كُلِّ ثَلَاثَةِ وَ يَقُولُ لَوْ أَرَدْتُ أَنْ أَخْتِمَهُ فِي أَقْرَبَ مِنْ ثَلَاثَةٍ تَخَتَّمْتُ وَ لَكِنِّي مَا مَرَرْتُ بِآيَةٍ قَطُّ إِلَّا فَكَّرْتُ فِيهَا وَ فِي أَيِّ شَيْءٍ أُنْزِلَتْ وَ فِي أَيِّ وَقْتٍ فَلِذَلِكَ صِرْتُ أَخْتِمُ فِي كُلِّ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ»[٢٠].

ونجد أيضا في بعض الروايات دعوة ضمنية إلى التدبر في آيات القرآن، واستنباط الأحكام والقيم الإسلامية منها: عَنْ عَبْدِ الأَعْلَى مَوْلَى آلِ سَامٍ قَالَ قُلْتُ لأَبِي عَبْدِ اللهعليه السلام عَثَرْتُ فَانْقَطَعَ ظُفُرِي فَجَعَلْتُ عَلَى إِصْبَعِي مَرَارَةً فَكَيْفَ أَصْنَعُ بِالْوُضُوءِ قَالَ يُعْرَفُ هَذَا وأَشْبَاهُه مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ امْسَحْ عَلَيْه[٢١].

والمفهوم من قول الإمام (يُعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عز وجل) هو أن الأمر لا يحتاج إلى السؤال، علماً بأن الحكم يحتاج إلى تأمل، ذلك لأن الآية الكريمة تدل على عدم وجوب مسح الرجل مباشرة؛ لأنه حرج، فيدور الأمر -في

(١٨) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢ ص٦٠٩.
(١٩) الكافي، الشيخ الكليني، ج٢ ص٦١٧.
(٢٠) عيون أخبار الرضا عليه السلام، الشيخ الصدوق، ج٢ ص١٨٠.
(٢١) الكافي، الشيخ الكليني، ج٣ ص٣٣.

النظرة الأولية –بين: سقوط المسح رأساً، وبين بقائه. إذن، فالآية بظاهرها لا تدل على لزوم المسح على المرارة، ولكن التأمل الدقيق يقضي بأن المسح (بما هو مسح) لا حرج فيه، إنما الموجب للحرج هو اشتراط المباشرة في المسح. إذن، فالمنفي في الآية الكريمة هو المسح المباشر الذي يؤدي الى الألم الذي يلزم منه الحرج وليس أصل المسح، ولذلك فالمفروض في هذه الحالة المسح على الإصبع المغطاة.

مع أنّ ذكره عليه السلام كلمة (وأشباهه) في قوله: (يُعرف هذا وأشباهه من كتاب الله عز وجل) إشارة الى أنّ هذا الحكم لم يقتصر على هذه الآية الكريمة، وإنما سحب الحكم على كافة الآيات القرآنية المشابهة، وهكذا نجد أن الإمام عليه السلام يدعو أصحابه إلى التأمل في الآيات القرآنية، واستنباط المفاهيم والأحكام الدقيقة منها.